زيارة مؤجلة

يهرول نحونا وقد امتقع وجهه..." عايزين كيسين دم حالًا ".. سألته مستنكرًا وبنبرةٍ لا تخلو من غضب.." هو إنتوا بتعملوا العملية للواد ومش مجهّزين كمية دم مناسبة؟!! "...لم يرد، بينما سارع زوج أختي وتلقف العينة من يده الممدودة، وانطلق هابطًا السلالم الحديدية.

انزويت في ركنٍ غير بعيد، أسائل نفسي " كيف لعملية منظار معوي أن تستغرق كل هذا الوقت؟!،ولم كل هذه الكمية من الدم الإستعواضية؟

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً عندما أخبرونا أنَّ العملية قد تمت بنجاح، وأنَّ المريض في طور الإفاقة، ويمكننا أن نراه بعد بضع دقائق، فتسللت خفية وحريصًا ألا تلمحني أختي، هبطت عبر السلم الحديدي، الواصل بين ردهة زوار العناية المركزة، وبين الطابق الأداري للمستشفى، وبمجرد أن لمحني الطبيب الجراح مال هامسًا لمن يجاوره، والذي التفت نحوي ثم دنا مني وسألني في لطف " أنت خال رامي؟ "

أومأت برأسي إيجابًا، فتأبطني ومضى بي إلى مكتبه.. أشعل سيجارته ونفث دخانها ببطء، وأنا أتفحصه محاولًا قراءة ملامح وجهه، رفع عينيه لمستوى عينيَّ، ثم قال بنبرةٍ هادئة: يبدو أنك متعلمًا ومتدينًا أيضًا، لذا سأصدقك القول بحقيقة الوضع.. لم يكن في حاجة للإسترسال شارحًا، فما يقوله قد استنبطته آنفًا، يواصل حديثه بينما حطت ذاكرتي رحالها متجاوزةً أربع وثلاثين سنة إيابا، كان رامي وقتئذ طفلًا في الثالثة أو الرابعة من عمره،

وقد فشلت كل محاولات والديه في إقناعه بتناول جرعة الدواء، فما كان مني إلا أن صفعته بقوة، وجثمت فوقه مقيدًا ذراعيه، وجرّعته الدواء عنوة.

منذ تلك اللحظة ورامي يهابني مهابةً شديدة، شأنه شأن كل أطفال العائلة، تريثت قليلًا قبل أن أصعد للطابق العلوي، ومجاهدًا في منع نهري دموعي من التدفق.

بخطى بطيئة تحسست مدخل القاعة، كان زوج أختي تائه النظرات، وأختي تتطلع من نافذة القاعة إلى الفراغ، بينما كان أخوه جالسًا القرفصاء، واضعًا رأسه بين كفيه.

لم أقو على الإقتراب منهم، فمضيت إلى قاعدةٍ رخامية مواجهة لباب غرفة العناية، واستندت بذراعي على حافتها الباردة، دقائق وخرج من بابها أحد الممرضين، نظر إليَ، وأودع رسالته في أم عيني...

" بعد الآن رامي لن يهابك ".

* * *

2017/8/13